﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨﴾ [آل عمران: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد إقامة الحجة على اليهود، جاء السؤال عن دواعي الكفر بعد ذلك

بعد أن أقام الله تعالى الحُجَّة على اليهود في الآيات السَّابقة في أمر نبوَّة النَّبيِّ ﷺ، وأبطل شُبَهَهم واحدةً تلو الأخرى، عقلًا وسمعًا؛ أمَرَ نبيَّه ﷺ أن يسألهم سؤالًا إنكاريًّا توبيخيًّا، عن إصرارهم على الكفر بآيات الله، مع أنَّه شهيد عليهم، عليم بهم، فقال لهم: "يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم، فلأيّ سبب تكفرون بدلائل الله الدّالّة على نبوّة محمّد وصدقه، والله مطّلع على أعمالكم ومجازيكم عليها."[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِيدٌ﴾: الشّهيد من أسماء الله ﷻ، فهو الأمين في شهادته، وقيل هو الّذي لا يغيب عنه شيء[2]، وفي القرآن: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 19]، ومعناه: " واللّهُ شهيدٌ بيني وبينكم في كلّ اختلاف بيننا وبينكم، في التّوحيد، وإثبات الرّسالة، والبعث، وكلّ شيء"[3]، "وأمّا الشّهيد، فقال ابن قتيبة: هو بمعنى الشّاهد، وقال الخطابيّ: هو الّذي لا يغيب عنه شيء، كأنّه الحاضر الشّاهد"[4]، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾: "تهديد لهم، ووعيد بسوء المصير، جزاء أعمالهم المنكرة، وكفرهم العناديّ.. وذلك كلّه واقع في علم الله، الّذي لا تخفى عليه خافية"[5].

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 5/10.
(2) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشافعيّ، ص: 92.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/40.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/309.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنّي: 2/537.

2) ﴿مَا تَعۡمَلُونَ﴾: قال ابن عبّاس: يريد أنّه حاضر لأعمالكم، ومعنى الآية: أن الله تعالى وبّخهم على كفرهم، وأخبر أنّه لا ينفعهم الاستمرار به، لأنّه شهيد على أعمالهم[1]، والمعنى: لم تكفرون بآيات اللَّهِ الّتي دلّتكم على صدق محمّد ﷺ والحال أنّ اللَّه شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته"[2]، وعبارة: ﴿وَٱللَّـهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾، جملة حاليّة فيها تهديد ووعيد[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قل لهم أيُّها النَّبيُّ: يا أهل الكتاب لِمَ تجحدون - بما في كتابكم وغيره - من البراهين الواضحة على صدق النَّبيِّ ﷺ، مع أنَّ الله تعالى مطَّلع على أعمالكم، ومحيطٌ بها علمًا؟ "فلم تعاندون الحقّ وتكفرون بآيات الله السّمعيّة والعقليّة الدّالة على صدقي فيما أبلّغه عن ربّي، والحال أنّ الله مطّلع عليكم، وعالم علم المعاين المشاهد لأعمالكم الظّاهرة والخفيّة، وسيجازيكم عليها بما تستحقّونه من عقاب أليم"[4].

توبيخ اليهود على كفرهم بالبيّنات الواضحة، وإحاطة علم الله بالأسرار المخبّأة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الفرق بين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ و﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بخطاب أهل الكتاب، وقد خاطبهم الله تعالى في مواضع أخرى مباشرة دون أمرِ النبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿قُلۡ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾ [آل عمران: 70]، وفي

الخطابُ الإلهيُّ المباشرُ يدلُّ على ترجيح كفَّةِ اللّين

(1) الواحديّ، الوسيط: 1/471.
(2) الزمّخشريّ، الكشّاف: 1/392.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/279.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/194.

مجيء الخطاب بـ ﴿قُلْ﴾ - كما في هذه الآية، والَّتي تليها - دلالة على إعراضه ﷻ عن المخاطَبين، وإشارة إلى كونهم غير مستأهلين خطابَهُ تعالى، وهو المناسب في هذا الموضع؛ لأنَّه تعالى بعد أن أتمَّ البراهين على نبوَّة النَّبيِّ ﷺ وأحكم الدَّلائل على صدق دعوته، لم يبادر المخاطَبون بهذه الدَّلائل والبيِّنات من أهل الكتاب إلى الإذعان لدين الإسلام، بل زادوا في طغيانهم، وحاولوا إيقاع الفتنة بين المسلمين، فاستحقُّوا ألَّا يُقبِل الله تعالى عليهم بلذيذ خطابه دون واسطة[1]، لاسيَّما بعد خطابِهم المباشر، فهذا التَّدرُّجُ في الخطابِ يدلُّ على أنَّ للين وقتًا، وللإعراضِ وقتًا آخر.

دلالة (يا) التَّنبيه مع الخطاب بالواسطة:

إضافةُ معنى البُعدِ فوق بُعْدِ الخطاب بالواسطة

في إثبات (يا) التَّنبيه في قولِه: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مع تقدُّم ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى بُعدِ المخاطبين من أهل الكتاب عن الحضرة الإلهيَّة، وذلك لكون (يا) النِّداء تُستعمل في نداء البعيد، فكان في إثباتها بعدٌ فوق البعد المستفاد من الخطاب بالواسطة في ﴿قُلْ﴾[2].

دلالة تخصيص أهلِ الكتاب بالخطابِ:

كُفر العالم بصحَّة الإسلام أقوى من كُفر غيره

في تخصيص الله تعالى أهل الكتاب - في هذه الآية والَّتي تليها - بالخطاب دليل على أنَّ كفرهم أقبح من كفر غيرهم ممَّن لم يبلُغه وصفُ النَّبيِّ ﷺ ولم يطَّلع على صدق نبوَّته ﷺ ففي خطاب الله تعالى لهم بأهليَّة الكتاب المقتضية للإيمان به، وبما يصدِّقه تقبيح لحالهم من التكذيب به وبنبيِّه ﷺ[3]، فوصفُهم بأهلِ الكتابِ حجَّةٌ عليهم، فلمّا أعرضوا عن مقتضاها زادهم تقبيحًا وتشنيعًا.

وفي خطاب اليهود والنَّصارى المعاندين للنَّبيِّ ﷺ بـ (أهل

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/280.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/10.
(3) البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/30، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/231.

الكتاب) تنزُّل معهم، ومشيٌ على مصطلَحهم في التَّسمية، فكأنَّه قيل لهم: أيُّها المدَّعون للعلم واتِّباع الوحي؛ لأنَّ أهل الكتاب حقًّا هم المؤمنون باللّٰه تعالى وبجميع أنبيائه وكُتبه[1].

خـطـابُ أهـلِ الـكـتـابِ بـهـذا الاسـمِ بِـعَـدِّهِ الغالِبَ عليهم

وقد يكون إثبات أهليَّة الكتاب لليهود والنَّصارى المعانِدين لدين الإسلام من باب التهكُّم عليهم وذمِّهم على كفرهم بالنَّبيِّ ﷺ وهذا كما لو قيل لمنتسبٍ إلى الدِّين مُفسدٍ في الأرض: يا صاحب الدِّين، لِمَ تفعلُ هذا[2]؟

إضافةُ الكتابِ لِمَنْ لا يعملُ به يدلُّ على التَّهكُّم

دلالة تعميم خطاب أهل الكتاب في الآية:

وفي تعميم الخطاب في الآية ومناداة جميع أهل الكتاب واستنكار كفرهم بآيات اللّٰه - وإن كان بعضهم قد دخل في دين الإسلام ككعب الأحبار وغيره - مبالَغة في زجرهم وتوبيخهم على عدم إيمانهم بالنَّبيِّ ﷺ فكأنَّه لمَّا كان دخول بعضهم إلى الإسلام - وقت نزول الآية - نادرًا لم يُعتدَّ بهذا النَّادر، وأُجرِي الخطاب على الجميع[3].

تعميمُ الخطابِ مـبـالَـغـةٌ في الزَّجْرِ وزيادةٌ في التَّوبيخِ

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾ للإنكار التَّوبيخيِّ:

الاستفهام في قولِه تعالى في خطابه لأهل الكتاب: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ليس على بابه، إنَّما هو للإنكار على كُفر المخاطَبين بآيات اللّٰه ومعجزاته الظَّاهرة، ومعناه: لا ينبغي أن تكفروا بآيات اللّٰه تعالى[4].

وفي الاستفهام معنًى آخر وهو التَّعجيز؛ إذ لا يمكن تقديم سبب كفر المرء باللّٰه تعالى وآياته، وخاصَّة إذا كان يعرف الحقَّ كحال المخاطَبين بهذه الآيات، فكأنَّ المعنى: هاتوا العذر عن كفركم؛ إن كنتم تقدرون على ذلك[5].

معنى التَّعجيزِ وإقامةِ الحجةِ حـاضـرٌ في الاستفهام

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/480.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/280.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/747.
(5) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/231.

دلالة ختم الآية بذكر شهادة الله على الأعمال:

مجاهرةُ أهل الكتاب بكفرهم؛ يناسبُها شهادةُ الله عليهم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ لَمَّا كان كفر أهل الكتاب ظاهرًا؛ كان ذكره تعالى للشَّهادة على ما يعملونه هو الأنسب في هذا الموضع، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ إذ شهوده تعالى على أعمال العباد يوجب عليهم ألَّا يجسُروا على الكفر به، فإنَّهم إن فعلوا؛ تعرَّضوا لغضب الله وعذابه[1].

دلالة استعمالِ لفظِ الجلالةِ بدلًا من ضمير التَّكلُّم في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾:

إيقاعُ المهابة في نفوس المخاطَبين وتهويلُ الخطب

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ استعمل فيه الاسم العظيم ظاهرًا وغيبةً، فلم يُعدل عنه إلى ضمير التَّكلُّم، فلم يقل تعالى: (وأنا شهيد)، ذلك أنَّ استعمالَ الاسمِ العظيمِ فيه إفادةٌ لتهويلِ خطب الكفر به، وإيقاع المهابة في قلوب الكافرين من التعرُّض لغضب الله تعالى الكامل في ألوهيَّته ووحدانيَّته[2]، مع ما فيه من العدول عن التَّكلُّم إلى الغيبةِ التي تُرشِّح معنى إيقاعِ المهابةِ.

دلالة صيغة المبالغة في ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾:

الإخبارُ بشهادةِ الله على أعمالِ الكفرةِ وعيدٌ وتهديدٌ

وفي مجيء صفة الشهادة على صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ إشارة إلى علمه تعالى الشَّامل الكامل لجميع أفعال أهل الكتاب ومعاندتهم لنبيِّه ﷺ والمبالَغة هنا بحسب ما تتعلَّق به الشَّهادة، لا الشَّهادة نفسها؛ لأنَّ صفات الله تعالى لا تتفاوت من حيث هي زيادة أو نقص[3]، وفي الإخبارِ بشهادته تعالى على أعمالِهم دليلٌ على التَّهديدِ والوعيدِ.

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/392، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/308.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/63.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/63.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»